


# تحصينات منطقة الشلال الثالث في العصر الوسيط (٥٥٠-١٣٢٣م)

محمد أحمد عبدالمجيد

**ملخص:** يقدم هذا البحث دراسة ميدانية تحليلية لتحصينات فترة العصر الوسيط في منطقة الشلال الثالث على النيل بشمالي السودان. وتعد هذه المنطقة واحدة من أكثر مناطق السودان ثراءً بالتحصينات التي تعود لتلك الفترة. إذ انتشرت أعداد كبيرة من هذه التحصينات على ضفتي النيل والجزر. وتمثلت في: تحصينات حماية التجارة على النيل، البيت الحصن، القرى المحصنة، تحصينات الإدارات الحاكمة والإدارات الدينية، والتحصينات العسكرية.

**Abstract:** *This paper presents a field study analysis of the medieval fortifications in the Third Cataract Region on the Nile in northern Sudan, an area most affluent in fortifications in Sudan at this period. A large numbers of these fortifications had spread along the banks of the Nile and the islands. Those were fortifications that served various functions: trade protection on the Nile, the castle house, fortified villages, protective fortifications of government and religion centers, and of military stations.*

## مقدمة

تعد التحصينات من الفروع المهمة في علم الآثار، وهي دليل آثاري مهم لمعرفة تاريخ الشعوب وثقافتهم وأنظمتهم الإدارية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية؛ وفوق هذا وذاك فهي عنصر حضاري مشترك بين جل حضارات وممالك العالم القديم، إن لم تكن جميعها. هذا الوضع يجعل علم الآثار معنياً بدراسة التاريخ الإنساني من هذه الزوايا المتعددة، اعتماداً على ما تقدمه هذه التحصينات من أدلة أثرية متنوعة.

وإضافة إلى ذلك تدخل التحصينات ضمن الآثار الشاخصة التي تراها الشعوب المختلفة، رمزاً لتاريخ أسلافهم، ومعلماً من معالم حضارتهم وهويتهم. كما أن هذا الشخوص يجعلها تلعب دوراً اقتصادياً مهاً في بعض البلدان، لكونها إحدى المزارات السياحية المهمة.

شهدت كل الفترات التاريخية فى السودان، بداية من فترة احتلال المملكة المصرية القديمة وحتى الفترات الإسلامية، بناء أنواع متعددة من التحصينات، أدت أدوارا مختلفة ومتباينة. وتعد النوبة السفلى من أغنى مناطق وادي النيل من حيث عدد التحصينات وتنوّعها. حيث شهدت كافة أنواع التحصينات في كل فترات التاريخ النوبي، وفترات سيطرة الممالك المصرية المتعاقبة.

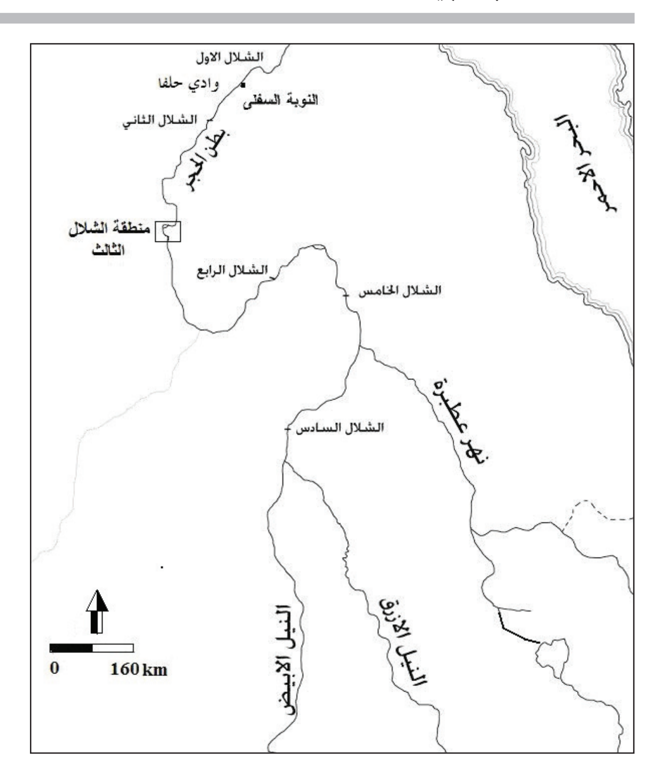
وتعد منطقة الشلال الثالث واحدة من أكثر مناطق السودان ثراءاً بالتحصينات التي تعود إلى فترات تاريخية مختلفة. ومن بينها تلك التي تعود إلى فترة العصر الوسيط، وهى أكثر تحصينات هذه المنطقة تنوعاً وكثافةً وانتشاراً. وهي كذلك واحدة من أغنى مناطق السودان وأكثرها تنوعاً من حيث المعطيات البيئية، والأدلة الثقافية والتاريخية وبخاصة في فترة العصر الوسيط تبعاً لموقعها المتميز بين إقليم النوبة السفلى وسهل دنقلا.

## جغرافية منطقة الشلال الثالث

تقع منطقة الشلال الثالث جغرافياً في شمالي السودان، وتمتد لأربعين كيلومتراً بين شلال كجبار (E 34 30 N/ 57 19) شمالاً، وأبو فاطمة (E 24 30/ N 41 19) جنوباً. وإدارياً تقع في الجزء الجنوبي من محافظة وادي حلفا بشمالي السودان (الخريطة رقم ١).

تعد منطقة الشلال الثالث من المناطق ذات الطبيعة


(ص ص ١٩-٢٨) ردمد ٨٩٤٧-١٣١٩



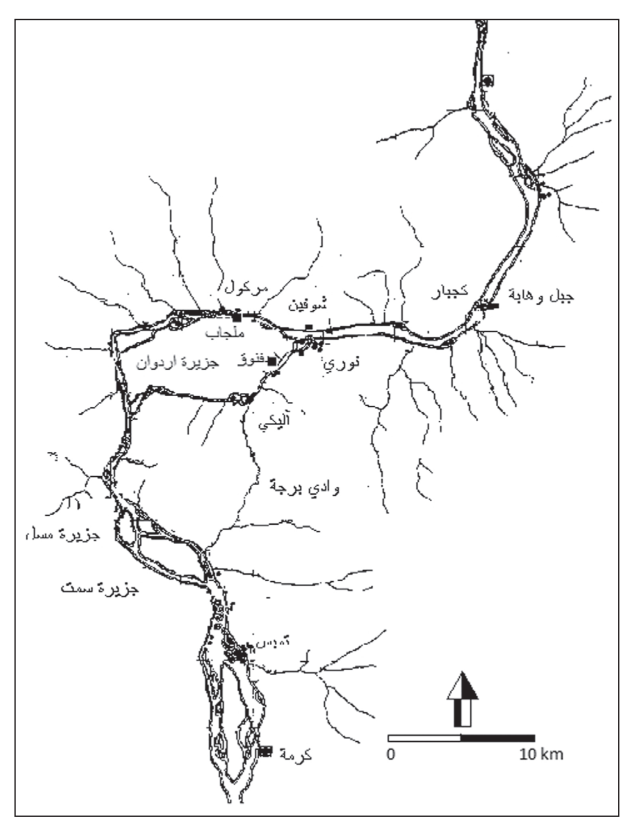

الخريطة ١: توضح موقع منطقة الشلال الثالث على النيل

الصخرية الوعرة. ويعترض النيل عندها عدد من الصخور والشلالات والجزر، ما يجعل المنطقة تتمتع بميزات التحصين الطبيعي الذي يوفر للإنسان قدراً جيداً من الأمن. وقد استفاد إنسان المنطقة عبر فترات تاريخية مختلفة وفترة العصر الوسيط بصفة خاصة من هذا التحصين الطبيعي، وعززه ببناء عدد كبير من التحصينات تلبي حاجاته المختلفة (الخريطة: ٢).

وتتركز الحياة عموما في هذه المنطقة في شريط ضيق من الأرض على جانبي النيل. وهو سهل منخفض، تحيط به هضاب متفاوتة الارتفاع، تفصل النيل وواديه عن الصحراء. ويضيق هذا السهل أو يتسع حسب طبيعة المكان الذي يجري فيه النيل. ولكنه عموما، لا يتجاوز بضع كيلومترات في أفضل الأحوال. وتمتاز هذه المنطقة بتربتها الطينية الخصبة، والتي تتجدد باستمرار نتيجة للطمي الذي يجلبه النيل عند فيضانه كل عام. وهذا يجعل الأراضي المتاخمة للنيل مثالية للزراعة، لتكون أهم مصادر غذاء إنسان المنطقة عبر العصور بجانب صيد أسماك النيل، وما تجلبه حركة التجارة بين مصر والنوبة العليا عبر منطقة الشلال الثالث (Edwards and Osman 1994: 3-7)،(Osman:2004:1-2).

ظلت هذه المنطقة على المستوي التاريخي جزءاً من مملكة نوباتيا المسيحية، ثم أصبحت تابعة لمحافظة المريس بعد الوحدة التي تمت بين نوباتيا والمقرة في وقت ما بين عامي ٥٨٠-٦٥٢م طبقاً لما ذكره (مسعد ١٩٦٠: ٧٣-٧٥). ويذكر علي عثمان محمد صالح (Osman:1982:76) وكيروان (Kirwan:1935:58-59) أن الموقع الجغرافي لمنطقة الشلال الثالث ضمن المنطقة التي كانت تحت سيطرة مملكة نوباتيا، ثم أصبحت جزءاً من محافظة المريس لاحقاً كما ذكر في وثائق ابن سليم الأسواني المتوفى سنة ٩٩٦م، بأن حدود المريس كانت في قرية تسمى ياتسو (Yatsu) التي تقع في أقصى جنوبي منطقة الشلال الثالث.

وقد حظيت منطقة الشلال الثالث لأول مرة في تاريخها بدراسات أثرية شاملة لكل المنطقة، بواسطة فريق مكون من جامعة الخرطوم السودانية وجامعة لستر البريطانية، بقيادة علي عثمان محمد صالح وديفيد إدواردس، اختارا (The Mahas Archeological Survey) اسماً لهذا المشروع.




الخريطة ٢: منطقة الشلال الثالث




وقد بدأ العمل في المشروع في العام ١٩٩٠م وما يزال مستمرا حتى اليوم.

## طبيعة تحصينات العصر الوسيط في منطقة الشلال الثالث:

شهدت فترة العصر الوسيط في منطقة الشلال الثالث بناء عدد مقدر من التحصينات، بلغت في مجملها أربعاً وعشرين موقعاً، توزعت على ضفتي النيل والجزر كما في الجدول ١:

| الضفة اليمنى للنيل | الجـــزر | الضفة اليسرى للنيل |
|---|---|---|
| حلة العرب | تمبس | كسينفركي |
| قمارا | دباكي | فقيرينفنتي |
| آليكي | سمت | مركول |
| نوري | أملا | جوقل |
| جبل وهابة | سقدن | شوفين |
| | موقر | هليبة |
| | ملجاب | |

**الجدول ١**: (Edwards&osman1992-1994),(Osman&Edwards,2000)

وقد لعبت هذه التحصينات أدواراً مهمة في حياة إنسان هذه الفترة، تمثلت في الأدوار الاقتصادية والإدارية والأمنية والعقائدية. وتبعاً لهذه الأدوار فقد تعددت أنواع التحصينات في منطقة الشلال الثالث. واختلفت طبيعة كل نوع عن الآخر. وهذه التحصينات تعبر بالضرورة عن أهمية منطقة الشلال الثالث في العصر الوسيط، وبخاصةً وأن المنطقة قد ازدحمت بالسكان في هذا العصر كما سبقت الإشارة إليه.

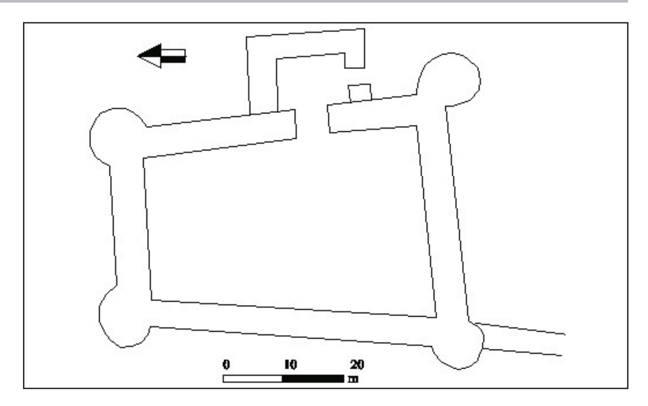
## تحصينات حماية تجارة النيل:

شهدت بلاد النوبة حركة تجارة واسعة في فترة العصر الوسيط، ربطت المنطقة بالبلاد المجاورة عبر طرق برية ونهرية، تمثلت في الطريق البري الصحراوي الذي يربط النوبة بدارفور وغربي إفريقيا وحوض البحر المتوسط، والطريق البري الذي يصل سواحل البحر الأحمر، ثم يتجه عبر البر شمالاً نحو مصر. والطريق النهري الذي يربط النوبة بمصر ويربط مناطق بلاد النوبة المختلفة ببعضها (Osman,1978:126).

وكان لموقع الشلال الثالث في الطريق المؤدى إلى دنقلة وعلوه أهمية كبيرة. وذلك بدليل التحصينات المخصصة لحماية الحركة على النيل في هذه المنطقة، وآثار طرق الدواب (الحمير) المحملة بالبضائع في المناطق التي تصعب فيها الملاحة في المنطقة مثل المنطقة التي تمتد من مسيدة وحتى تمبس (Osman, 1978: 116).

من بين التحصينات التي خصصت لحماية التجارة على النيل حصني مركول وشوفين (Edward & Osman, 1994: 41-49). فحصن شوفين يقع على الضفة اليسرى للنيل قبالة موقع نوري المحصن. ومركول على بعد عشرة كيلومترات تقريباً غربي شوفين على الضفة اليمني للنيل (الخريطة: ٢). وقد بنيا من الحجر الرملي، في أحجام غير متساوية، حيث أن مركول أكبر حجماً من شوفين. وفي كل حصن منهما أربعة أبراج دائرية الشكل في أركانهما أبراج بينما هنالك برجان آخران في حصن مركول في الجهتين الشرقية والغربية، يحرس الغربية منهما بوابة. والجدير بالذكر أن البوابات في الموقعين قد تم حمايتها أيضا ببناء في شكل حرف L (الشكلان: ١، ٢، اللوحتان: ١، ٢).

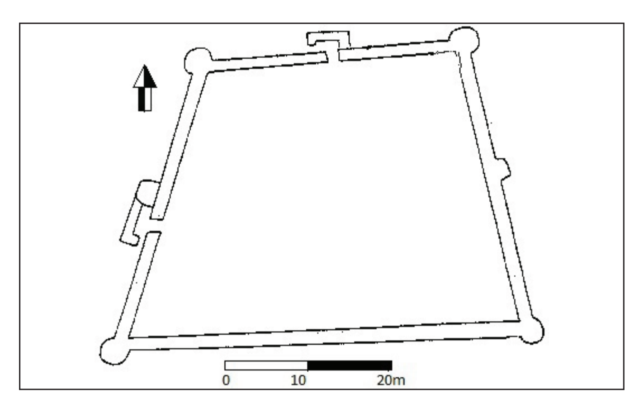
على الرغم من أن علي عثمان محمد صالح قد ذكر بان الحصنين قد خصصا لتجارة الرقيق بناء على دراسة دلالات أسميهما Oshiindiffi (حصن العبيد باللغة النوبية) (Osman:1978:139)، إلا أن وضع البوابات يشير إلى أنهما قد استخدما لحماية التجارة عموماً. فالبوابة الشرقية في حصن شوفين يواجه النيل مباشرةً مما يدل على أنها كانت مخصصةً إلى الدخول إلى الحصن من النيل والخروج منه. وقد اختلف الأمر في حصن مركول، فالبوابة الشمالية فيه تواجه الصحراء، بينما الغربية تواجه الطرق القادمة من جهة النوبة العليا. هذا الوضع يجعلنا نعتقد بأن الحصنين قد لعبا أدواراً متكاملة بالتحكم على حركة التجارة في منطقة الشلال الثالث، أحدهما يتحكم على النيل، والآخر يتحكم على الصحراء والطريق البري القادم من المقرة وعلوة، وكليهما يتحكمان على كافة أنواع التجارة في المنطقة.




الشكل ١: حصن شوفين



اللوحة ١: حصن شوفين




الشكل ٢: حصن مركول



اللوحة ٢: حصن مركول

**البيت الحصن:** Castle–House

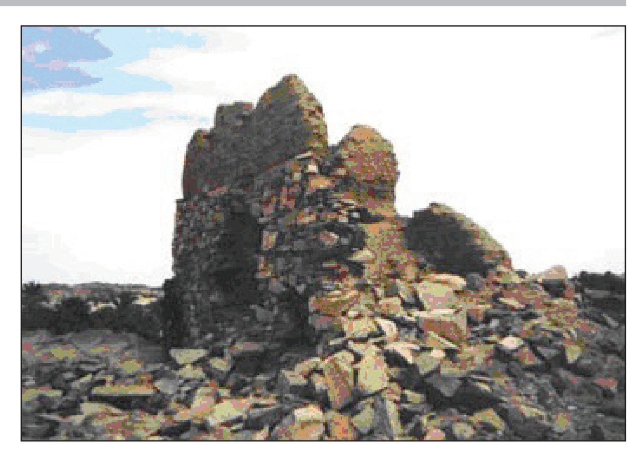
عرفت بلاد النوبة هذا النوع من التحصينات في القرون الأخيرة من الفترة المسيحية، والقرون الأولى من الفترة الإسلامية، أي بين القرنين الثالث عشر والقرن الثامن عشر الميلاديين وذلك بين قصر ابريم وفركة. ووصلت قمة تطوره في المنطقة بين الشلالين الثالث والخامس. وهي أكبر حجماً من تلك التي بنيت في النوبة السفلى، واصبح البناء يعتمد على الطوب اللبن والحجر معاً (Adams,1994:11).

وقد عرفت منطقة الشلال الثالث أيضا مثل هذا النوع من التحصينات. ففي أردوان وجد بيت حصن في أقصى غربي جزيرة سقدن الموسمية. وثلاثة أخرى توجد في وحدة واحدة في أقصى شرقي جزيرة ملجاب أدخل واحداً منها داخل سور. وقد بنيت هذه التحصينات على نسق واحد بطابق سفلي من الحجر وطابق أعلى من الحجر كما في النوبة السفلى. وقد أرّخت للفترة المسيحية المتأخرة.

هذه المباني يمكن إضافتها إلى العديد من مثيلاتها التي كشفت في المنطقة. ففي تاجاب على الضفة اليسرى وجد واحد منها، كما وجدت مجموعة منها تكون قرية مسيحية في جزيرة جوقل ضمت أكثر من سبعة عشر بيتاً حصن (اللوحة: ٣). ومجموعة أخرى تكون قرية مسيحية في تينوتي، وهى شبيهه بسابقاتها ولكنها بنيت من الداخل بالطوب اللبن. كذلك وجدت مجموعة في أواي في جزيرة كور الموسمية في الركن الجنوبي لأردوان. (Edwards & Osman, 1994: 43. 2000: 64).

يضع وليم آدمس هذا النوع من التحصينات ضمن فترة سماها بفترة الإقطاع القائم على القوة العسكرية غير المركزية، والتي ظهرت في أوربا والشرق الأدنى ابتداءً من القرن الثاني عشر. ويقول إنها ظهرت في النوبة في نهاية الفترة المسيحية (Adams: 1977:508-521).

وما نود ذكره هنا أن بلاد النوبة كانت وما تزال ذات خصوصية ثقافية لا يمكن ربطها بما في أوروبا والشرق الأدنى؛ فالتنظيم الاجتماعي في النوبة لا يقوم أصلا على أي نوع من القوة أو الطبقة الاجتماعية، إنما يقوم على مجتمع قوامه صلات القربى بين أفراده، وتكون سلطة الحل



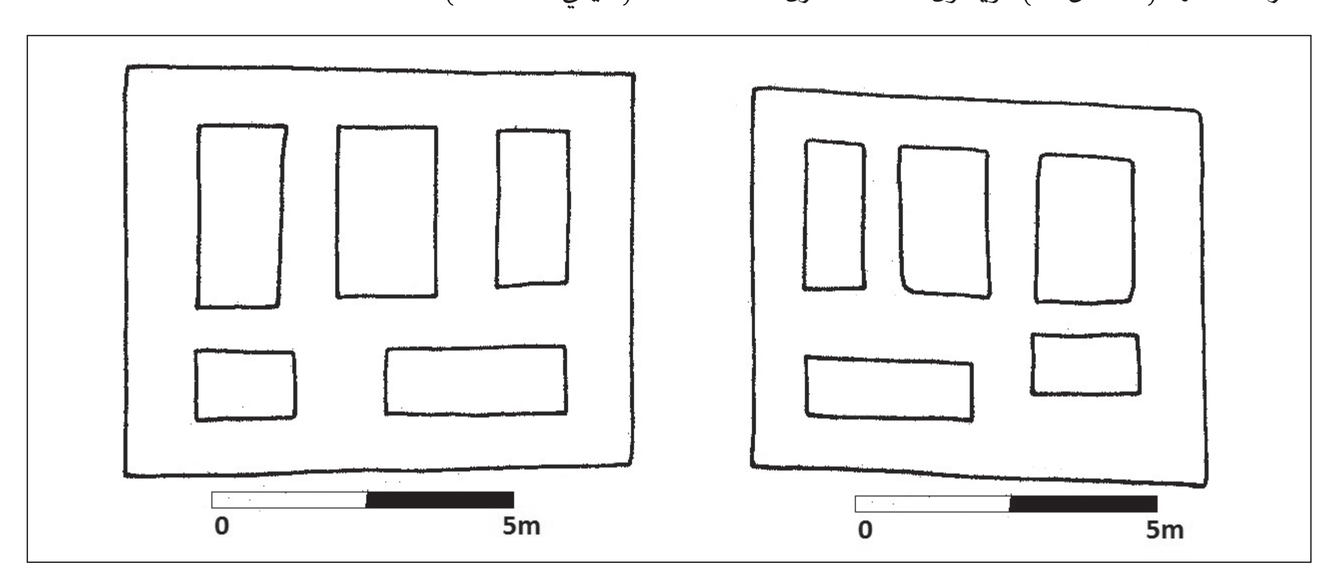
اللوحة ٣: البيت الحصن في جوقل

والعقد في شؤون هذا المجتمع قائمة فقط على رجاحة العقل وكبر السن. هذا الوضع يجعلنا نذهب مذهبا غير مذهب وليم آدمس (Adams: 1977)، وهو أن البيت الحصن لم ينشأ في بلاد النوبة ومنطقة الشلال الثالث على وجه الخصوص، لخدمة نظام إقطاع جذوره في أوروبا والشرق الأدنى، بل لاتقاء خطر الوافدين الذين كثرت أعدادهم في الفترة المسيحية المتأخرة.

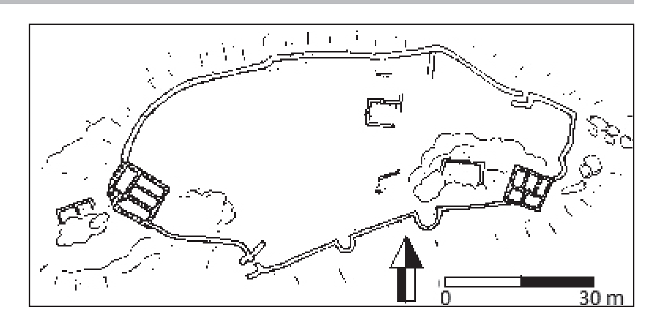
وغالباً ما لعب البيت الحصن أدواراً تتمثل في أن يكون الطابق السفلي للبيت المحصن مخزنا جماعياً لسكان كل قرية توجد فيه، مثل دفنوق وبخاصة أن طريقة البناء في هذا الموقع جعلت من سمك الجدار أكبر من عرض الغرفة نفسها (الشكل: ٣). ويكون هذا المخزن لحفظ الغذاء والمحاصيل والأغراض الأخرى للمجتمع من النهابة واللصوص. ويكون الطابق العلوي سكنا للزعيم المحلى لذلك المجتمع. أو أن هذه المباني كانت للأغنياء من المزارعين، يتخذون طوابقها السفلية كمخازن ويسكنون في الطوابق العلوية، بينما يتخذ المجتمع الخيام سكنا له. أو أن المجتمع كله يسكن في مثل هذا النوع من التحصينات. وهذا غالباً ما يكون في القرية التي وجدت في جزيرة جوقل والأخرى التي توجد في تينوتى.

### القرى المحصنة:

نتيجة للهجرات المتزايدة لبلاد النوبة على إثر اتفاقية البقط من مصر وشمالي إفريقيا، ازدادت الفوضى والإضطرابات في بلاد النوبة، وأصبحت القبائل المهاجرة سبباً في عمليات السلب والنهب التي اجتاحت بلاد النوبة كلها. وقابل ذلك ضعف واضح في السلطة المركزية في دنقلة، إلى أن أصبحت المقرة دولة تابعة لدولة المماليك في مصر في القرن الثالث عشر. وبذلك لم تستطع التحكم على نظامها الداخلي، وافتقدت القدرة حتى على مقاومة البدو النهابة من سكان الصحراء. واستمرت هذه الأوضاع السيئة في البلاد إلى أن سقطت الدولة المسيحية في دنقلة سنة ١٣٢٣م بهزيمة آخر ملوكها الملك كدنبس. (كروباتشيك ١٩٨٨: ٤٠٢-٤٠٦؛ غيطاس ١٩٨٧:١١٧) (شيني ١٩٥٤:١٠)




الشكل ٣: البيت الحصن في دفنوق




الشكل ٤: القرية المحصنة في ملجاب

وجعل هذا الوضع المجتمعات المسيحية النوبية فاقدة للأمن على أفرادها وممتلكاتها. ولما كانت هذه المجتمعات غير قادرة على بناء تحصينات لكل أسرة منفصلة في كثير من الأحيان، فقد لجأت إلى بناء أسوار حول قرىً بأكملها طلباً للأمن الجماعي لأفراد المجتمع (Adams,1977:513-14).

وفى منطقة الشلال – الثالث بالتحديد – لجأ بعض السكان النوبيون إلي بناء البيت الحصن. ولجأ بعضهم الآخر إلى القرى المسوّرة. ففي ملجاب أدخلت قرية مسيحية داخل سور غير منتظم الشكل على مساحة ٤٠×٩٥ متراً مربعاً. وبنيت فيه أبراج نصف دائرية بجهتي الشمال والشرق، وبوابتين محصنتين من جهتي الجنوب الغربي والشمال الشرقي (الشكل: ٤). وفى الركن الشمالي الغربي من هذه القرية المحصنة يوجد بيت حصن (Castle–house) بنى بالحجر والطوب اللبن، إضافة إلى بعض المباني الأخرى (Edward&Osman2000:18-19).

إن وضع البيت الحصن داخل القرية المحصنة ربما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن البيت الحصن عادة ما كان يبنى لخدمة المجتمع عموماً والحفاظ على ممتلكاته. وعندما اشتد الخطر في فترة ما اضطر سكان هذه القرية إلى أحاطة قريتهم بسور ضم المنازل العادية والبيت الحصن. واستمر استخدام هذه القرية المحصنة حتى الفترات ما بعد المسيحية.

قرية أخرى تسمى آرتندفي تقع في الجزء الشمالي من جزيرة موقر قبالة حصن مركول، حصنت بسور من الحجر أطواله ٧٠×٣٠ متراً. وبنيت فيه أبراج من الطوب اللبن ملحقة بغرف من أقصى الشمال في مواجهة النيل. وقد استمرت هذه القرية المحصنة من الفترة المسيحية المتأخرة إلى فترة ما بعد العصر الوسيط. هذه الأمثلة من القرى المحصنة وغيرها في منطقة الشلال الثالث تميزت بأسوار طويلة، مقارنة مع أسوار التحصينات الأخرى، نظراً لأنها بنيت حول قرى كانت قائمة قبل التفكير في إحاطتها بتحصينات. هذا الأمر أدى بدوره إلى أن تظهر التحصينات متعرجة وغير منتظمة الشكل.

### تحصينات الإدارات الحاكمة والإدارات الدينية:

إن لم يكن الموقع الديني في بلاد النوبة المسيحية ديراً، فإنه من الصعب التفريق بينه وبين الموقع الإداري. وذلك لأن الحكم والدين كان بينهما رباط وثيق. ويصور ميخالوفسكى ملوك النوبة بأنهم قساوسة، شأنهم شأن الفراعنة في مصر القديمة، يقومون بالمسائل الدينية وبعض المهام الدنيوية. هؤلاء الملوك لم تكن سلطتهم مركزية مطلقة (ميخالوفسكى ١٩٨٥:٣٣٨)، فقد كانت المملكة مقسمة لأقاليم تحكم بواسطة ملوك صغار يدينون للملك الكبير بالولاء والطاعة (شبيكة ١٩٩١: ٢٧). ووصف أبو صالح هؤلاء الملوك الصغار بالكهنة؛ لأنهم يقومون بالإنابة عن الملك بحكم الأقاليم وإقامة الطقوس الدينية (مسعد ١٩٦٠: ٨٥).

وبالقياس على ذلك فإن المسؤولين المحليين داخل هذه الأقاليم غالباً ما قاموا بهذا الدور المزدوج، الذي يكفل للحاكم القيام بالشؤون الدينية والمهام الإدارية معا. ويصبح بذلك رمزاً دينياً وسياسياً بالمنطقة، ومقره يصبح أيضاً مقراً للسلطة الإدارية والدينية. ولذلك فإن التحصينات المخصصة للحكام لعبت دوراً إدارياً ودينيا أيضاً. وليس لدينا دليل محدد يوضح لنا المواقع ذات الصبغة الإدارية والدينية، غير أننا يمكن أن نتعرف عليها بأنها أكبر حجماً من تلك المخصصة للتحكم على حركة التجارة على النيل، وأصغر حجماً من القرى المحصنة. بجانب ذلك فإن هذا النوع من التحصينات يحتوي بالضرورة على كنيسة، وعلى بعض الغرف المخصصة للحاكم وأسرته وحاشيته.

وقد بنيت تحصينات المراكز الإدارية في النوبة السفلى في قصر إبريم، وجبل عدة، وفرص، في فترات سابقة للفترة المسيحية المتأخرة، لأن الحاجة إلى الأمن في مثل

هذه المواقع ليست طارئة كما في قرى ومنازل هذه الفترة. إضافة إلى ذلك فإن الكنيسة كانت عنصراً أساسياً في هذه المواقع. ويذكر جون فانتيني (Vantin:i 1970: 170) ووليم آدمس (Adams: 1977: 494, 1978: 29) بأن اقدم دليل مسيحي في فرص، هو الكنيسة المبنية بالطوب اللبن والتي تعود إلى القرن الخامس الميلادي.

واعتماداً على كل ما ورد، فإن موقع كسينفركي يمكن اعتباره مثالاً جيداً لمثل هذا النوع من التحصينات (اللوحة: ٤). وهذا الموقع يقع بالقرب من النيل على الضفة المقابلة للركن الجنوبي الغربي لجزيرة أردوان على يسار النيل.

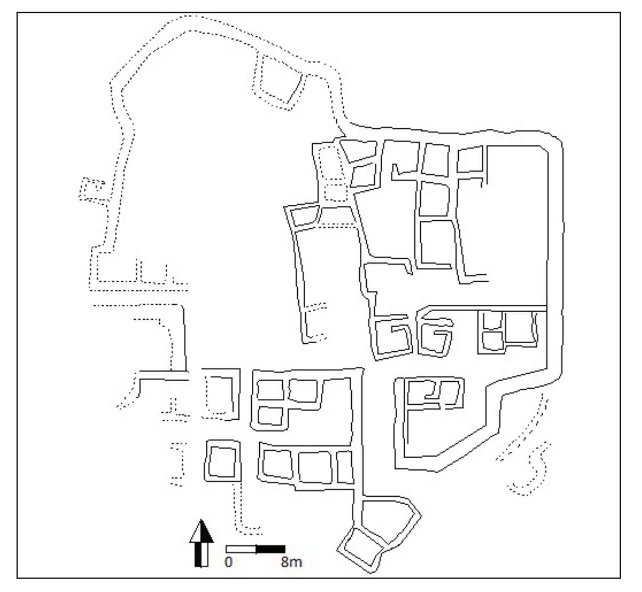
أسوار هذا الموقع التي بنيت من الحجر ما تزال بعض أجزائها باقية. وتحتوي بداخلها على موقع استيطان مسيحي صغير، وكنيسة بنيت بالطوب اللبن بمساحة ١٤،٢×٧،٤ متر ٢. واعتماداً على الفخار فقد أُرّخ الموقع إلى الفترات المسيحية الكلاسيكية والمتأخرة. ويوجد بالقرب من هذا الموقع المحصن عدد من المواقع المسيحية الأخرى، أهمها بئر يرفع منها الماء بواسطة آلة الساقية، وموقع مقابر وقرية مسيحية. هذه المواقع توضح أهمية منطقة فقيرينفنتى، والتي تكاملت اقتصادياً (الساقية) وسكانياً (القرية المسيحية) وعقائدياً (الكنيسة والمقابر). وهذا يقودنا إلى الاعتقاد بأن تحصينات فقيرينفنتى كانت مركزاً إدارياً ودينياً في منطقة الشلال الثالث. وهذا بالطبع لا يعنى أنه الموقع الوحيد الذي لعب هذا الدور في هذه المنطقة (Edwards & Osman, 19994: 36-39. 1992. 2000).

## التحصينات العسكرية:

لم تكشف لنا الدراسات التي أجريت في منطقة الشلال الثالث حتى الآن عن وجود تحصينات ذات طبيعة عسكرية فقط. ويعزى ذلك لعدم اكتمال الدراسات في المنطقة حتى الآن؛ ولكننا رجحنا أن تكون المنطقة قد شهدت بناء مثل هذا النوع من التحصينات، لما شهدته بلاد النوبة من مشاكل أمنية في فترة العصر الوسيط. ولهذا فقد قمنا بدراسة موقع جبل وهابة، الذي لم يسبق أن قام أحد باجراء دراسات تفصيلية عليه، وذلك بافتراض أن الموقع يمكن أن يمثل هذا النوع من التحصينات في المنطقة.

أن طبيعة تحصينات ومباني موقع جبل وهابة توحي بأن الموقع لم يشهد فترة استيطان طويلة في فترة العصر الوسيط. فالموقع بكل أجزائه بنى في مرحلة واحدة. ولو شهد فترة استيطان طويلة لتعددت مراحل البناء أو اختلف أسلوب بناء المباني الداخلية عن بناء التحصينات على أقل تقدير (الشكل: ٥، اللوحة: ٥). وقد ألقت هذه المرحلة


اللوحة ٤: موقع كسينفركي



الشكل ٥: حصن جبل وهابة


اللوحة : جبل وهابة

الواحدة بظلالها حتى في تخطيط الموقع المنظم الذي يدل على أن الموقع قام في فترة قصيرة لأمر طارئ. فالموقع لا يمكن أن يكون قرية محصنة؛ وذلك لأن القرى المحصنة في النوبة المسيحية - كما تم الحديث عنها سابقاً - تقوم على مراحل عديدة، تبدأ ببناء القرية أولا، ثم تأتى مرحلة التحصين في فترات الاضطراب الأمني؛ كما نستبعد أن يكون الموقع إدارياً، وذلك لأن المراكز الإدارية عادة ما تتميز بفترة استيطان طويلة. كما تشهد مثل هذه المواقع بناء مراحل عديدة من البناء، تتمثل في إصلاح وصيانة المباني الداخلية التي تمثل مقرات الحكم، وتعزيزات مستمرة للتحصينات حسب مقتضيات الحاجة للأمن. أما كونه موقعاً للتحكم على التجارة، فعلى الرغم من موقعه الممتاز على الشلال الثالث مباشرة، إلا أننا نستبعد ذلك لوقوع الموقع على قمة جبل عال، يصعب معها حركة الدخول إليه والخروج منه كما في التحصينات النوبية، وبالتالي لا يمكن أن يلعب الدور المنوط به. وبجانب ذلك فإن تحصينات التحكم على حركة التجارة عادة ما تبنى في فترات الازدهار الاقتصادي، والتي تنشط معها حركة التجارة، إلا أن هذا الموقع يعود إلى فترة العصر المسيحي المتأخر، أفقر فترات العصر الوسيط اقتصاداً.

بقى لنا الدور العسكري لموقع جبل وهابة، فطريقة بناء الموقع في مرحلة واحدة وبطريقة منتظمة تدل على أنه بنى لأمر طارئ، كما سبق القول؛ وإلى جانب موقعه على قمة جبل مطل على الشلال الثالث، كل ذلك يجعلنا نرجح هذا الدور، وبخاصة أن موقع الجبل يتحكم تماماً على كل الطرق التي تمر من الشمال إلى الجنوب، إضافة إلى سهولة الهجوم لمن يتخذ موقعه فوق الجبل على من هو أدنى منه. كما أن الشلال يعد عائقاً لمرور ناقلات الجنود النهرية. ويستغرق عبورهم بالنهر أو البر بالقرب من النيل زمناً يمكّن المراقبين فوق الجبل من الانقضاض عليهم، أو إنذار من هم خلفهم.

والسؤال الذي يهمنا: من هو المستفيد من تحصينات جبل وهابة، وما الداعي إلى بنائها؟ وللإجابة على هذا السؤال، تتبّعنا سير العلاقة بين النوبة المسيحية ومصر الإسلامية في الفترة المسيحية المتأخرة التي شهدت بناء هذه التحصينات؛ فقد انهارت العلاقات السلمية بين النوبة ومصر، والتي نشأت بعد اتفاقية البقط عقب استيلاء المماليك (١٢٥٠-١٥١٧م) على مقاليد الأمور في مصر. وقد اختطّ ملوك النوبة سياسة هجومية دفاعية ضد مصر وغزوا عيزاب وأسوان في سنة ١٢٧٢م. وكان رد المماليك أن أرسلوا سلسلة من الحملات العسكرية لوضع حد لهجمات النوبة، ولجعل مملكة المقرة دولة تابعة لمصر. وصحبت الحملات المملوكية التي أخذت تغزو النوبة منذ عام ١٢٧٥م أعداد كبيرة من المقاتلين من القبائل العربية في مصر. واستمرت هذه الغزوات وتسببت في النهاية في انهيار المملكة المسيحية في دنقلة بحلول العام ١٣٢٣م (حسن ١٢ :١٩٧٢-١٣).

وهذه الهجمات المملوكية المستمرة لاقت بالضرورة مقاومة من ملوك دنقلة. وكانت الأجزاء الشمالية من محافظة المريس تتعرض لهجمات مستمرة بسبب قربها من مصر. هذا إضافة إلى تدفق القبائل العربية إليها، وانهيار البنية الاجتماعية فيها، بجانب بعد هذا الجزء عن العاصمة المركزية في دنقلة، ما يصعب معها إرسال المؤن المادية واللوجستية. ولكل ذلك كان لا بد من وجود خط دفاع ثانٍ يحمى عاصمة المملكة من تلك الهجمات المملوكية. ولعل منطقة الشلال الثالث أنسب مكان لخط الدفاع هذا وذلك للآتي:

- تقع منطقة الشلال الثالث خلف منطقة سهلية واسعة نسبياً، تبدأ من الحدود الجنوبية لإقليم بطن الحجر، وتسمى إقليم عبري - دلقو. ويصعب إقامة خطوط دفاع في هذا الإقليم المفتوح.
- طبيعة منطقة الشلال الثالث الصخرية الوعرة، والتي يسهل فيها إقامة دفاعات عسكرية، وشن هجمات مباغتة على المهاجمين.
- تعد منطقة الشلال الثالث حاجزاً طبيعياً بين سهل عبري - دلقو وسهل دنقلا؛ ولذلك فهي منطقة مناسبة كخط دفاع عن مدينة دنقلا.
- قرب منطقة الشلال الثالث من دنقلا؛ يجعل إرسال المؤن والمعدات الحربية سهلاً للإدارة الحاكمة في

دنقلا. هذا إضافة إلى سهولة متابعة سير المهاجمين من هذه المنطقة وجعلها نقطة للإنذار المبكر.

ويعد جبل وهابة أنسب مكان لإنشاء خط الدفاع هذا، وذلك لوقوعه في مدخل منطقة الشلال الثالث. هذا إلى جانب سهولة المراقبة والسيطرة على البر والنيل من فوق قمة الجبل التي تكشف مساحات شاسعة من الأراضي شمال الجبل. ويمكن أخذ الاحتياطات اللازمة قبل اقتراب الجيوش الغازية من موقع الجبل ومنطقة الشلال الثالث.

ولكل ما تقدم ذكره، فإننا نميل إلى الاعتقاد بأن موقع جبل وهابة المحصن قد أقيم في هذه المنطقة في الفترة المسيحية المتأخرة بواسطة ملوك مملكة دنقلا ورؤساء إداراتهم في منطقة الشلال الثالث، وذلك لصد هجمات المماليك المتكررة على المنطقة، ولجعل جبل وهابة نقطة دفاع رئيسية للمملكة، ما يفسر الكم الكبير من الغرف داخل الموقع لكونه ثكنة عسكرية لعدد كبير من الجنود.

## خاتمة

يعد الموقع الجغرافي لمنطقة الشلال الثالث بين النوبة السفلى المتاخمة لمصر والنوبة العليا، إضافة إلى بيئتها الطبيعية الوعرة، أحد أهم اسباب انتشار التحصينات على ضفتي النيل والجزر على طول المنطقة.

وقد تنوّعت وظائف تحصينات العصر الوسيط في هذه المنطقة، فظهرت تحصينات حماية التجارة على النيل، البيت الحصن، القرى المحصنة، تحصينات الإدارات الحاكمة والإدارات الدينية، والتحصينات العسكرية؛ ولذلك فإن منطقة الشلال الثالث في هذه الفترة تعد أحد أهم مواقع التحصينات في السودان.


**د. محمد أحمد عبدالمجيد: السودان، جامعة وادي النيل**


## المراجع:

### أولاً: المراجع العربية


حسن، يوسف فضل. ١٩٧٢. **مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي**. الخرطوم.

شبيكة، مكي. ١٩٩١. **السودان عبر القرون**. دار الجيل، بيروت.

شيني، ب. ل. ١٩٥٤. **بلاد النوبة في العصور الوسطى**. ترجمة نجم الدين محمد شريف. رسالة المتحف رقم ٢، الخرطوم.

غيطاس، محمد. ١٩٨٧. **حملة اليونسكو وأضواء جديدة على بلاد النوبة**. الإسكندرية.

كروباتشيك، ل. ١٩٧٨. «النوبة في نهاية القرن الثاني عشر حتى الفونج في القرن السادس عشر» **تاريخ إفريقيا العام**، المجلد الرابع، الصفحات ٣٩٩-٤٥١. إشراف ج نياني. اليونسكو.

مسعد، مصطفى محمد. ١٩٦٠. **الإسلام والنوبة في العصور الوسطى**. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

ميخالوفسكي، ك.. ١٩٩٤. «انتشار الإسلام في النوبة». **تاريخ إفريقيا العام**، المجلد الثاني، الصفحات ٣٢٩-٣٤٣. إشراف جمال مختار. اليونسكو.

## ثانياً: المراجع غير العربية

Adams, William Y. 1977: **Nubia: Corridor to Africa**, London.

……… 1978: "Qasr Ibrim: Archaeological Conspectus", **Nubian Studies**, Cambridge, pp. 25-33.

……… 1994 "Castle-Houses of Late Medieval Nubia". **Archeologie Du Nil Moyen**, Lille, Vol. 6, pp.11-40.

Edwards, D. & Ali Osman 1992. **Mahas Survey Reports** 1(The Mahas Survey1991), Cambridge.

……… 1994. **Mahas Survey Reports 2** (The Mahas Survey1990), Cambridge.

……… 2000. "The Archaeology of Ardwan Island". **Sudan & Nubia**, London. Bulletin No.4.

Kirwan, L. P. 1935. "Notes on the Topography of the Christian Nubian Kingdoms". **Journal of Egyptian Archaeology**, London. Vol. XXI, pp. 57-62.

Osman, Ali. 1977. The Economy and Trade of Medieval Nubia, Dissertation submitted for Ph.D. at University of Cambridge. (Unpublished)

……… 1982. "Medieval Nubia: Retrospect's and Introspects" **New Discoveries in Nubia**, Leiden, Ed. Paul van Moorsel.

……… 2004. "History and settlement in the 3rd Cataract Region During Ancient and Medieval Times", **proceeding of the Society of Africanist Archaeologist 2004 conference**, Bergin, Norway.

Osman, Ali &Edwards, D. 2000. **Mahas Survey Reports** 3(The Mahas Survey 2000. Cambridge.

Vantini, John. 1970. **The Excavation at Faras: Contribution to History of Christian Nubia**. Bulgaria.